بيني.. وبين ذاكرتي

ليس صعبا أن أتقمص دور ذاكرتي، ومجريات حياتها بالاختفاء داخلها والمراقبة لكل ماتفعله ليلها وصباحاتها. كنت أحدث نفسى كثيرا بصوت مسموع.. يعمل نصف عقلى المرتبط باستدعاء الذاكرة، الذكريات فقط هي ماباتت حية، يقظة متجسدة أمامي.. شيء ما أثار داخلي، فأخذتُ أستدعي لحظات موعدي الأول معه.

أختبئ داخل الركن الذي استطعتُ ثقبه بحذر داخل رأسي.. أصيخ السمع وأرقب الارتعاشات الصادرة عن انفعالاتي، وأكمل باقي الصورة من معرفتي السابقة بخيباتي. ألعن البراءة وأسب السذاجة في بادئ الأمر .. الآن هي هادئة لذا حمدت الله أنها لم تلفظني في لحظة جنون حادة.

هي كما هي منذ عرفتها، تتحدث في صخب طفولي، أو تغرق في صمت موجع. أقبع هادئة بداخل جمجمتي، أحشر نفسي بين تلافيف

عقلي، يصلني خدر، ورغم دفء الدم لكن برودة الخواء طالت أعضائي.

الحب.. مزيج من الشغف والألم والعذاب.. نتألم أثناء بحثنا عنه وافتقادنا له..ونتألم للحرص عليه، والتمسك به حين نجده، ونرتعب من فقدانه، ومن هنا نبدأ مشوار الترنح، بين التشكيك والتصديق، بين الثقة في النفس أو فقدانها.

لماذا كلما حاولنا أن نتعرف في لحظة كشف عن سبب كل هذه الخيبات والفشل، في الإبقاء على العلاقة نقية عذبة كما بدأت، يعلو ملامحنا القلق؟.. نتوه بين لحظات التعارف الأولى، بهمسها وجمالها ورقتها وفتنتها وتفصيلاتها السريالية المدهشة والمحببة في آن، لماذا يترسب الكذب واضحا ساطعا شفافا وحيدا في قاع الروح؟.. يصنع جسدا شبحيا أسود يغلف كل الرجال.؟ .. أيعقل أن كل الرجال يكذبون؟.. كلهم؟!.

أعرف أنه حين تراقب الضباع السماءَ، ليس تضرعا أو محاولة منها لاستشفاف حالة الطقس، بل تبحث عن النسور لكى تستدل منها على مواقع الفرائس المتوقعة.

أو ليست رؤية الأشياء والإحساس بها هي الاصدق..؟

ألا نكتفي من لعبة التخمين أبدا...؟!

أليس هناك دائما خطا فاصلا بين المقبول وغير المقبول..؟!

ألا يقولون أن الحقيقة جميلة دائما..

فلماذا تملؤنا الحقائق بالأوجاع..؟!

الفوز لايكون مضمونا دائما، نعم فى الغالب نحن نسمع أنفسنا، ولا ننتبه للرسائل التي حولنا، لا نريد أن نعرف أنها طبيعة الأشياء.

الحب.. هل يوجد مايسمونه بالحب؟.. نعم جربت مشاعره.. الحب الطبيعي بين أى رجل وأية امرأة.. مررتُ بنفس المشاعر، ووصلت لنفس نهاياته.. النهاية تأتى عاجلا أو متلكئة، وينتهى الحب.. هل الحب مصيدة من طرف للايقاع بطرف، أو أطراف

اخرى؟.. من أجل أشياء كثيرة كأن يدفء غربته أو يؤنس وحدته، ويخوض التجربة لذاتها.

لاشيء مجاني.. حين نحب، فالألم ومشاعر الحب والغضب يسيرون دائما يدا بيد لايفترقون.

نحب مكانا أو عطرا أو صنفا من ألوان الطعام نستمتع به.. نريده نتذكره بلطف.. نحب أغنيات الحب العذري، المثقل بالود والسهر والدموع والهجر أو الرغبة فى الثأر، أغنيات السهر والدموع واللهفة والشموع تخاطب المراهقين والمراهقات يحفظونها ويمارسونها في الغالب، ثم تصبح من الذكريات المضحكات، ويسمونها مشاعر الحب الأول.. تعلِّم داخل مشاعرنا كمخالب لا تريد ان تترك فريستها.

الفشل هو ما يشعرنا أن حياتنا لم تكن في النهاية سوى انتظار وراء انتظار، وكأننا في زاوية مترية أو غرفة ضيقة، نرى فيها في الصباحات عكس ما كنا نراه في المساء.

تتزايد رغبتي فى تناول الطعام، وتحاصرها الرغبة فى النوم وأحيانا البكاءأيضا.. إحساس باللامبالاة أخذ يزحف أمامي ويحاصرني، وأقضي أغلب وقتي في الغرفة التي استأجرتها في بيت الزوجية.

نحتل مساحة من الزمان ومن المكان.. نتحد مع الكون بتعارفنا على العديد من البشر، منذ وجودنا الأول ومجموعة من المشاعر والأحاسيس، منذ أن كنا أطفالا ويافعين، يغيب عنا من يغيب ويأتي إلينا أناس جدد فى أعمالنا وشوارعنا وبيوتنا.

نظل أحيانا محتجزين داخل إطارات لصور نقشت في أدمغتنا، تبدو كالوشم فى ثباتها.. نختار بين المعرفة والمعروف في عالمنا الموضوعي أو الذاتي..

لماذا أنا دائمة القلق، تسكنني نار الرغبة في الرؤية، في الفهم وفي الفعل، في حين أني ليست لدي أوهام حول العالم الذي أعيش فيه أو الشخوص الذي أتعامل معهم، أيا كانت العلاقة التي تربطني بهم، وأصبح إغراء الرحيل شمسا، وسط جليد يحاصرني، تدعوني أن أخرج

إليها، أنفض غبار صمتي، وانحباس رغباتي العادلة، وتخرج معي كل الشياطين التي اعتادت أن تتلبسني.

نعم.. فليس هناك أفقا محدودا للأحلام، ولا أعترف بسقف للتوق والأشواق، بكل مسمياتها ومضامينها. سأهجر صمتي الذي كان مفروشا أمامي بساطا، ألصقت قدماي عليه بمسامير ومدقات واهمة، فبعد كل حدث جلل يتسع القلب وتزداد قدرته على الاحتواء، فمن الألم نستكشف الكثير عبر انكسار الخاطر وهزيمة الأحلام، والملل الذي يجرد الروح من الحياة، وتصبح متيبسة جوفاء خاوية أو تكاد، فلم يعد ثمة الكثير من الأريج في بستان أيامي المثقلة، علي الآن أن أخرج قبل أن تصبح البقية الباقية من روضة روحي خرابا يابسا، فالفشل الذي يشعرنا في النهاية أن حياتنا الماضية كلها لم تكن أكثر من انتظار ما لا يأتي.

تتضح كلها أمامي الآن كالثمار التي أثقلها النضوج فسقطت، لن أساءل نفسي مرة ثانية متى يجلو الهم عنى، نعم بعد أن أهدتني تلك العلاقة الطويلة اليتم، ولا شيء سواه على المستويات كافة، ورغم أن

الحزن كالرب موجود في كل مكان، لن أكون من أتباعه بعد هذه اللحظة الشفافة الكاشفة، فالباقي ليست بكثير بعد، لكني لست نادمة، فالحياة تعطي الفرص أحيانا.

في بداية أي مغامرة رائعة تكون المعنويات في السماء. الحكي يعيد الذكرى.

كان جليد الصمت والملل تتسع رقعته وتتماسك جزيئاته امامي بطول وعرض الأماكن التي تجمعنا معا، كجلمود صخري تعصى علي محاولات كسرها، ناهيك عن عدم إقدامي على أية محاولة جادة، لفهم تلك التفصيلات التي أحياها، وبالتالي لم تنطق في القدرة على تغيير ما يقلق ويعثر ويمرض الروح، فمع كل صباح تتسلل خيوط الصبح تطل على أرقي، وتملأ بنورها السماء متنهدة اسمعها من خلف زجاج النافذة، يرتمي ظلال الأشياء حولي فتهز رأسها الذهبية، وترمي بسؤالها: أليس الظل يشي بوجود الشمش؟

تبدأ الاسئلة تحلق أمامي وحولي، في دوائر وجودية وهمية متتابعة، تخنق الحيز المكاني الذي يأسرني منذ سنين أكثر فأكثر.

لم يفت عليّ يوما دون أن أفتش بعقلي ماذا ينقص وما تبقى علي لتجهيزه لقائمة الرحيل التي أعددتها.. وبإصرار محكم هذه المرة.

اتهمتني صديقاتي بالغباء وقلة الحيلة لطول استمرار العلاقة، رغم أنهن يعلمن أني لست كذلك.. أيضا لم أشأ مشاركة إياهن، ولا إحدى شقيقاتي بقراري.. فقط زميلتي "ماجي".. من تناقشتُ معها وأفضيت لها بسري، ولم أكن أعلم بكرم تقديرها للثقة بيننا، والتي تفاجئت حين أخبرتها إني أستطيع الذهاب بالسيارة وقتما تشاء إلى شقتي الجديدة.

بالفعل عدة مرات ذهبنا، في صحبة أصغر أبنائها كحجة غياب.. حين ننضج نصبح نحن محور أحلامنا ولا نربط تلك الأحلام بالآخرين. فلفترة طويلة من سنى الحياة تظل الأحلام _حرفيا_ محجوزة للأولاد. الكثير منا يعيشون داخل شرنقة مؤبداتهم.. وفجأة يريدون استعادة الدهشة.. يتخوفون من الجديد أيا كان، حتى ولو كان تغييرا للأحسن.. الخوف من الجديد من مجرد إعادة النظر في علاقاتنا بمن معنا.. الأغلبية يسورون علاقاتهم الكهولة الكئيبة كالأمر الواقع كحبل سري لا فكاك بعيدا عنه إلا للموت.

الآن؛ امتلأ وعاء إدراكي، كصوت ناي أليف يبوح، ينعي، يتشكى بأسي، فيجري دمعي، لكن ليس ندما.

أستغربتُ كثيرا حين لمست مدى إيماني بالرسائل الكونية التي يجب علينا أن نستدركها بوعي.. من هذه الرسائل جملة كتبها أنطون تشيكوف قرأتها وأنا يشغلني توقيت القرار، وكأنني ألمحها للمرة الأولى على الحائط: "

حين لاتحب المكان استبدله

حين يؤذيك الأشخاص غادرهم

حين تمل ابتكر فكرة جديدة

حين تحبط اقرأ بشغف

المهم في الحياة ألا تقف متفرجا"

وكأنه نسي أن يقول "قبل أن تجن".. أخذتْ هذه الكلمات تطن برأسي ليل نهار.. بدأت أسمعها بصوتي، وبصوت أتخيله للكاتب الروسي الكبير.

رسالة أخرى تسلمها عقلي، واستمسك بها.. كنت في عزاء أحد الأصدقاء.. عادةً لا أتواجد في أى عزاء، لكن الفقيد كان صديقا قريبا لقلبي.. عيبه الوحيد أنه لم يملك القدرة على ترك أو الابتعاد عما جلب له المرض، وأثر على نفسيته حتى فاجأته سكتة قلبية.. لا يهم ماذا كان هذا الذي قتله وهو أصغرنا، لكنه قدم لنا ولي على وجه الخصوص، هدية بوفاته المفاجئة تلك.. ألا أستمر في ما قد يقتلني كمد.. رحمك الله ياصديقي .

جلستُ ساهدة، أرتبُ فُتاتي ومزقي، لم أمنع رأسي من أن يتسكع داخل سنوات طويلة عجفاء، وكأن رأسي اصطدم بالقمر فجأة، فأضيء كل شيء حولي، وكأنه العرس ويتضح دون سابق إنذار.. فالضحايا ليسوا بأفضل من مضطهديهم..

الآن؛ لن أتهكَّم على طول غفلتي. فالأوان لم يفت بعد.